كلمة أصدقاء الفقيد

الأستاذ الدكتور عصام الكوسى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

صدق الله العظيم

أيّها الحفل الكريم:

أقفُ اليومَ موقفًا لا أُحْسَدُ عليه، حيثُ تختلطُ فيه الدموعُ الصّامتةُ بوجيبِ قلبٍ هدّتهُ دُّوَيْهيَّةٌ تصْفَرُّ منها الأنامِلُ، عجبًا لحروفٍ تناثرتْ هنا وهناك، بذلتُ فيها ما بذلتُ، لعلّي أصُوغُ منها ما يعبّرُ عمّا يجيشُ في الصَّدرِ من مشاعرِ ألمٍ وحُزْنٍ عَصَفتْ بي مذ عَلِمْتُ بهذا المُصابِ الجلل، إذ فقدتُ صديقًا قلّ نظيرُه، اخترمتْهُ يدُ المنون، وهو في أوْجِ عطَائه العلمي، صديقًا وفيًّا وعالمًا عتيقًا، امتطى صَهْوةَ الحرفِ منذُ نُعومةِ أظفارِه، فطَاعَتْ له لغةٌ شموسٌ، تأبى أنْ تُسلِّمَ زِمَامَها إلا لفارسٍ أصيل.

أيُّها الحفل الكريم:

ها هي ذي المرَّةُ الثانيةُ التي أدخلُ فيها هذا المكانَ، المرةُ الأولى كانت بِرِفْقَة أستاذنا النبهان لنحتفي به بعد أنْ اختارَه أعضَاءُ المَجْمَع زميلًا لهم، وليصبح عضوًا أصيلًا في مجْمَع الخالدين، واليومَ أدخلُه مرافقًا روحَهُ الطاهرةَ التي تحلّق فوقَ رؤوسنا.

ثمّةَ أحاسيسُ مؤلمةٌ تفورُ في أعماقنا لهذا الفقدِ العظيم، بيْدَ أننّا نطأطئ رؤوسنا صاغرين أمام الموت وجبروته، فقد اعتاد الانتصار علينا في كلِّ جولاته، غيرَ آبهٍ لنا ولآلامنا، يسوقنا واحدًا واحدًا ومشاعِرُ العجْز تكبّلنا، يودّع بعضُنا بعْضًا، نرثي ونُرْثى، فصدق فينا قولُ أبي الطيّب المتنبي:

وَأَفجَعُ مَنْ فَقَدْنا مَنْ وَجَدْنا قُبَيلَ الفَقدِ مَفقودَ المِثالِ

يُدَفِّنُ بَعضُنا بَعضًا وَتَمشي أَواخِرُنا عَلى هامِ الأَوالي

لقد غادرنا أبو مصعبٍ في زمنٍ قلَّ فيه الرجالُ، حينما التقيتُ به قُبيلَ سفرِهِ إلى حماةَ لتحديدِ موعدٍ لمناقشة طالبٍ من طلابه لم يخطرْ على البالِ قطُّ أنّ لقائي هذا سيكونُ الأخيرَ، وأنّ الموتَ على بُعْدِ خطواتٍ منه، وأنّ هذه المناقشةَ ستتمُّ من دونِه.

عرفت الدكتورَ عبدَ الإلهِ قبلَ سَبْعَةَ عشَرَ عامًا حينما قدِمْتُ من دمشقَ إلى حمصَ لأكونَ مدرّسًا لمقرر النحو والصرف في آداب جامعة البعث، وكان لا بُدّ قبل البدءِ بالتدريس من لقاءِ شيْخ العربيّة فيها؛ لأفيدَ منه، فأحْسَسْتُ أنني أعْرِفَهُ منذ أمدٍ بعيد، فمهّدَ لي الطريقَ بتوجيهاته، ومدّ لي يدَهُ السَّمْحاءَ لأسيرَ إلى جانبه في هذا الدرب الشائك الجميل، ولفت نظري حبُّه الخيرَ للجميع، وعشقُه لغةَ الضّاد وغيرتُه التي لا حدودَ لها على اللغة المقدّسة.

وحين ألَّفت كتابيَ الأوّلَ طلبتُ منه أنْ يقدّمَ لَه، فلم يتوانَ، وأهداني مُقدّمةً ستبقى وسَامًا على صدْرِ جميع مؤلفاتي، وأكملَ معروفَه معي فشاركني في تأليف كتابيْ النحو والصرف للسنة الأولى من دونِ أنْ يلتفتَ إلى نسبة المشاركة كما يفعل الكثيرون، فقد كان جُلَّ اهتمامِه أنْ يرى الكتابان النور.

واستمرّ التعاونُ بيننا، فكان أخًا بحقٍّ، ومرشدًا لنا في كلّ أمرٍ يتعلق باللغة، ولا سيّما أنّه كان - وما أقسى هذه الكلمةَ - مكتبةً متنقلة تضمُّ في خزائِنها عددًا كبيرًا من كتبِ اللغة، وعالمًا تفاصيلَ كلِّ كتابٍ وعددَ طَبَعَاتِه.

لم يعترفْ أستاذُنا بتقدّم السنوات، فعلى الرّغم من تجاوزه السبعين بسنوات خمسٍ بقي قارئًا نهْمًا وباحِثًا منقّبًا، لا يعرفُ الكَلالَ أو الفتورَ، وعلى الرغم من أنه كان جَبَلَ علمٍ يستندُ إليه كلُّ طالبٍ أو باحثٍ، فإنّه لم يبخلْ بمعلومة، ولم يستبدَّ برأي له يومًا، فقد كان - رحمه الله - يستمع إلى كلّ الآراء برحابةِ صَدْر قلَّ نظيرُها، ولم يخجلْ من قبولِ رأيٍ مخالفٍ له إنْ رآه صحيحًا، فهو لا يخشى من قول الحقّ ولو على نفسه. كان رحمه الله دمثًا هادئًا، قلّما يمتلكُه الغضبُ أو يفقِدُ هدوءَه المألوفَ، وأشهد أنني ما رأيتُه يغضبُ إلا للسانِ الضّاد ذوْدًا عنه وإعلاءً لشأنه.

أيها الحفل الكريم:

إنّ الدكتورَ عبدَ الإلهِ سيبقى حيًّا في نفوس مَنْ تَلْمذوا له ومَنْ رافقوه في رحلته في دروب العربية، وسيبقى ما قدّمه إلى لسان الضاد عصيًّا على الموتِ متحديًا جبروتَه، وستبقى كلماتُه تتردُ في أسماعنا، ما دام العاصي يرددُ قولَ ديكِ الجن:

بكـــاكَ أَخٌ لَـــمْ تَحْـــوهِ بِقَرابَـــةٍ بَلَـى إنَّ إِخْـوانَ الصَّـفَاءِ أَقَـارِبُ
وأَظْلَمَتِ الدُّنْيا التي كُنْـتَ جَارَهَـا كأَنَّـــكَ للـــدُّنْيا أَخٌ ومُنَاسِـــبُ
يُبَـــرِّدُ نِيْـــرانَ المَصَـــائِبِ أَنَّنـــي أَرَى زَمَنًـا لَـمْ تَبْـقَ فيـهِ مَصَـائِبُ

رحمـك الله يـا أبـا مصـعبٍ، ولروحِـك الطّـاهرة فـي العليـاء الرّحمـةُ والسّلام، وستبقى خالدًا في نفوسنا وعقولنا ما ذرَّ شارقُ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❊ ❊ ❊